

وإذا الجبال سَيرت!!!.....

رواية

جعدان جعدان



الإهداء.....

بسم الله الرحمن الرحيم

إلى روح أبي : الشمس الغاربة إلى ما وراء  
الأفق الأزرق.

ولدكم : جعدان جعدان

حلب في ١٧ - ٤ - ٢٠٠٨

## ٢٤٠٣٢٤٤ ٧٨٧٩٧٤٢٠ ٠٩٤٤٤١٠٩٢٥

يوم أن وجدت الحياة على وجه الأرض تكون جنين الصراع في رحمها فأصبحت الحياة حبلية به، وكانت ساعة المخاض هائلة بمراراتها وعظيمة بأهوالها فقد أنجبت الحياة ((صراعا)) فانفصل الصراع عن الحياة فكان أول نأثر على بطحاء الأرض، إذ نفخ في بوق الثورة والتمرد وواجه الناموس الكلي، بحرب ضروسة قاسية فخلق الاستمرارية على الأرض ودفع بموكب التطور إلى مرافئ التقدم، من هنا يرجع له الفضل في تفجير المتناقضات فهو يمثل طرف النزاع تمثيلاً واقعياً فهو لسانه البليغ ووجهه الباسم الطلق وصوته الجهوري، فكان له الجرأة والإقدام عندما أعلن حربه على الأزلية، خلق من أضلاعها، وولد من جوارحها، وانبتق من أوارها فقدم العزم، وأبرم عهداً ليخوض غمار حرب طويلة الأمد تبدأ من فجر قدوم أوائل الحياة إلى ليل نهاية الحياة.. فانقسمت الحياة إلى عملاقين عظيمين ودارت رحى الحرب بينهما.. ويتوقف الحرب تتوقف مسيرة التاريخ إلى الأمام، وبإشعال أوارها تزدهر حضارة الأمم على نيرانها، وتضحك الحياة على مرابعها وتخضر الأبدية على مطاحناتها.. هكذا بدأت مسيرة الحياة تحيك خيوطها وتنسج نسيجها من ديناميكية الصراع وانقسم المجتمع بفعل أحداث الصراع إلى شقين، الشق الأول يمثل الفئة المهيمنة المسيطرة والشق الثاني يمثل طبقة البروليتاريا العريقة وهي الفئة العظمى المسحوقة تحت كوابيس وإيثار الطبقة الأولى.. من هنا تبدأ حكاية القدر ومسرحية التنازح والبقاء...

الرفة (عام) ١٩٨٧

جمردا جمردا

## الفصل الأول

في منطقة جبلية وعرة تكتظ بجماعات من أشجار الصنوبر والهور والزيتون حيث القامات ممشوقة والرؤوس شامخة إلى العلو فكأنها تقراً في أعالي السماء آيات المجد والسمو وفي صدر الجبل الأشم حيث الينابيع الدفاقة تمد الطبيعة بنسغ الحياة ومدد البقاء، والشلالات التي تهدر كأنها جيوش غازية تنزل إلى مواطن النزال، والرياح تنشد أغاني الغزل والفخار وترتل أنشودة الصراع والأنين تارة وتنغم الصباح والتأويل تارة أخرى وعازفة على قيثارة دقيقة في الصنع والتركيب تنن أنين المحتضر، وتزأر زئير الأسد وتعصف الريح الصرر العاتية تشن هجوما مضادا على الشجيرات الفقيرات فتقلع من جذورها وترقد على الأرض صرعى من الضربات القاصمة التي تلقتها في صدرها وجباها فأصبح الجبل حلبة للصراعات، ومسرحا للمطاحنات فالشمس والرياح، والرعد والبرق والثلوج والأمطار كل طرف في النزاع يناضل في احتلاله فالشمس حين تهيم عليه يغدو الجبل مبتسما ضاحكا وأما الثلوج فتجعل الثلج رجلا فقيها طاهر القلب والبدن صادق المضمون والشكل ناصع الفكر والبيان، والأمطار تغسل جراثيم العلل في الجبل، وتطهر من الأوساخ والأدران.. أما الضباب هو آهات وزفرات من هول العاصفة، والدخان هو نفخة الجبل من شدة الكارثة وهيبة النازلة، وأما الوديان فهي جراح عميقة وأخاديد رهيبية وذلك نتيجة العراك مع ظواهر الطبيعة من فيضانات، وسيول عارمة والسهول في الجبل هي موقعه الهام واستراتيجيته الواضحة في التصدي لعناصر الطبيعة والسهل يمثل صدره البارز، ومركزه الأشم وأما القمم هي الكبرياء والشموخ تتضاءل عناصر الطبيعة أمام جلاله تسقط أمام قمته جيوش الأمطار وفيلق الثلوج، وكتائب السيول، وتنكمش تجاه علوه جميع الأخطار، ولا أحد يقدر أن ينكس رأسه، ويخفض هيئته فيبقى على الأبد متوجا بالنصر، مكللاً بالسيادة.... إن قمم الجبال هي ذروة عالية من الكرامة والمجد.. هي المثل العليا في العز والإباء ورفض قاطع طحالب الخنوع وعناكب الذل...

الجبل وما أدراك ما الجبل! إنه منبع العطاء والكبرياء فالصخور والهضاب والوديان والسهول هي جسدها والرياح والأمطار والهواء والثلوج هي كفنها وروحها فالجبل هو جسد وروح، ومادة ومعنى، وتربة وفكر، وجسد وكفن... وعندما ندخل في رحاب الجبل نسمع أعذب الأنغام، وأحلى الأناشيد من الطيور والعصافير فهي قاعة كبرى لأمسياتهم الشعرية يعقد البلبل والهازار والسنونو مؤتمرهم السنوي في آذار الربيع من كل عام فكأن الجبل سوق عكاظ يتباهى فيه الشعراء ويلقون فيه قصائدهم التي طالما تفتنوا في صنعها وأهرقوا ليالهم في صنعها.. إنك لتسمع أنغاما مختلفة وألحانا متباينة، وأصواتا متغايرة.. وعلى هذا الغصن يغرد البلبل وعلى تلك الرابية الهزار يصدح بأغان حزينة شجية يوعز إلى أن الحياة فصول، وللحياة مراحل، والسعادة للقوي والشقاء للضعيف.. وعلى تلك الشجرة الباسقة العندليب يخطب بصوته الجهوري أمام ملاً من حشود الطيور أن الفراق داء علقم وللفراق قصص و حكايات،

ويوم للقاء هو يوم البهجة والسرور..تلكم تلك الطيور قد حولوا سكينه الجبل إلى ألوان من الأنغام فبدا الطرب يرقص فيه جذلاً،والابتهاج يتحرك فيه فرحاً والسرور يقطن في كل جارحة من جوارحه..وتتربع الغبطة على وجهه والأمل في عينيه وأضحى الجبل قيثارة حساسة تعزف عليها أنملة حبلى بالأنغام وأصابع ملأى بالألحان...

## الفصل الثاني

كما أنّ للجبال أسرار وللجبال أكنان يتنفس الجبل عبر الكهوف السحيقة فالمغاور هي جهاز التنفس أو جهاز الرئة للجبل والضباب والسحاب هما نتيجة عمليتي الشهيق والزفير فبحركة الجبل ونشاطه تدوم الحياة،ويزخر الخير ويستمر الرخاء وتتفاعل عوامل الصراع لتتشكل ولادة التطور وصانعاً مجد التقدم والأشجار حراس حقيقيون يخفرون حدوده،ويحفظون موائمه وشواطئه...  
فالأشجار هي عمالقة الجبل وجبابرته اللواتي يقفن بالمرصاد لكل قادم خطير ويفتحن صدورهن لكل نسيم عليل،فالأشجار هي أرواح خفية في جسد الجبل الأشمّ تمنح العمر المديد وتوقظ فيه صرخة النشاط ونداء الحيوية..وتحيا فيه فاعلية اليقظة،ودوافع النهضة. ذلك الجبل قلاع حصينة للثائرين وملاذ للأحرار، وأصل أصيل للفن والروعة والجمال هو كبرياء الأرض وحنفوانه وموطنٌ أبدي للشعر والشعراء..فهو مخبأً للفارين من وجه العدالة،وقاعدة انطلاق للثوار الذين يعلنون الحرب على العبودية والاستعباد..هو مكان ومسد للجان والشجاع يعيش فيه الأرنب والثعلب يزأر فيه الأسد...تسمع فيه نعيب الغربان وتغريد البلابل وهمس الأشجار المحتبكة الأغصان،ونعيق البوم..وفحيح الأفاعي فهو متحف من متاحف الأرض تجد فيه ألوانا مختلفة متناقضة من عناصر الحياة من هذا التنوع والاختلاف تستمد الاستمرارية مادتها والبقاء وجوده والتطور كيانه...

### الفصل الثالث

تتناثر القرى منتشرة بين ضلوع الجبل، كما تتفرق أحجار الشطرنج على خشبة الملعب.. ففي كل تل قرية وعلى كل منعطف ضيعة، وفوق كل قمة جماعة من بيوتات الفلاحين.. أولئك القرويون الذين اعتصموا بالجبال فرارا من الحروب الأليمة الموجعة ومن تلك الغزوات البشرية الهائلة وجعلوا من الجبل قلعة حصينة للتصدي والدفاع عن مكتسباتهم المادية والمعنوية، والتجاءهم إلى الجبال كان ذلك من أجل الهروب من السيول والطوفان الذي كان يغرق كميات كبيرة من البشر، ويسحقهم سحقاً...

لم يسكن أولئك القرويون في تلك المناطق الجبلية المستعصية من باب الصدفة وإنما نتيجة ظروف قاسية أليمة، ظروف تتمثل في ظلم الطبيعة وقسوتها، وظروف بشرية تتمثل في العناة والظالمين الذين اضطهدوا الإنسانية عبر أحقاب طويلة....

## الفصل الرابع

هكذا اكتظ الجبل بالفلاحين الذين هربوا من بطش الطبيعة، وظلم السفاحين وأووا إلى الجبل ليصونوا كرامتهم، ويحفظوا أرواحهم وعندما يحتضر النهار ويأتي الليل ويلقي بأثوابه السوداء على جسد الجبل تتراءى من بعيد بيوت القرويين كأنها نجوم معلقة في السماء، تنتزح المنطقة الجبلية بفوانيس الفلاحين الذين أشعلوا سراجهم في بيوتهم بوقود من الزيت.. تتلألأ هذه الأنوار الباهتة الضعيفة من أخمص قدمي الجبل إلى قمة رأسه وتوزع منازل القرويين في قامته وبين أخايدته والتواءاته، ويسكن معظمهم في الكهوف والمغاور مع مواشيهم.

وعندما يعلن الفجر بزوغه ويحيك الصباح خيوطه من أشعة الشمس الذهبية، ويرسل النهار إشراقه الهادئ الساكن إلى ذرى الجبال في تلك اللحظة الدقيقة من جلاء الفجر

ينزل الفلاحون مع بغالهم إلى فلاحة الأرض والرعاة مع أغنامهم إلى المروج الخضراء والسهول الغنية بقامات الأعشاب، والبساط السندي الجميل.... ذلك الراعي الذي يسير مع أغنامه من رابية إلى رابية ومن منطقة معشوشبة إلى مكان أكثر خضرة ونضارة والمزمار لا يفارق وسطه وجعبة الزاد والطعام معلقة على كتفه، والعصا الغليظة سلاحه في الكر والفر وحنجرته بين الأونة والأخرى تصدح بأغان قديمة تتعلق بالعشق والغرام، والتضحية والإيثار فيملاً الراعي بأغانيه فيحاء الجبل وتتردد الأودية صدى كلماته ويملاً الجو حزناً واكتئاباً والأغنام تسمع الأناشيد العذبة من فم الراعي فتجدد نشاطها وتلتهم الأعشاب الخضراء بشوق وحماس... فهي تطرب لمزمار الراعي وترقص لأغانيه وتبتهج لألحانه وترتفع معنوياتها، والمعنويات هي قصور شاهقة ذات قاعدة راسخة لا تعرف التردد والتحيز.. ويجتمع الرعيان تحت جناح الظلام في منزل أحد أصدقائهم، وقد علت البسمة وجوههم والفرحة تغمر قلوبهم أنهم عادوا من الطبيعة وقد امتلأت بطون مواشيهم ولسوف تدرّ حليباً صافياً لذيذاً...

وتجتمع الرعاة في ذلك البيت المنفرد يتحدث كل واحد عن قصصه في تصديه للوحوش الضارية من ذئب وضباع وأنمار والضحكات تعلوا على مجلسهم، والمحبة تجلس في جوار قلوبهم، والأنسة تقطن في أعماق أفئدتهم... بينما هم يتحدثون عن أيامهم المنقرضة في بيت ينام فيه الإنسان والحيوان بين حشجة أنفاس البغال جالسين بجانب المواقف متأففين من زهرير الشتاء القارس، وألسنة النيران تعبر عن عواطفهم المكبوتة التي اشتاقت إلى أيام الدفء وأغاني الصيف الجميل...

## الفصل الخامس

عشرات القرى الجبلية التي انتشرت بين الهضاب والسهول، وعلى حوافي الأودية، ومنازلها تمثل الفقر الأسود والبؤس المتردي، حيث بنيت بيوتها من طين وسقفها من أعواد، ويتوسط في وسط الدار موقد للنار يوضع عليه القدر لطبخ الطعام، ويجلس بجانبه عندما يكون الشتاء في طغيانه، تالين على المسامع قصص الأيام الغابرة من أساير ورثوها من أجدادهم العظماء على أسنة الآباء... في المغامرة والمبارزة، والخيول الأصيلة واللعب بالسيف والسقاء والسماحة... واقتضت سنة الحياة أن يناضل كل كائن في سبيل الملكية فلرعية راع، وللداية صاحب، وللستان مالك وللكرم ناطور، وللجند قائد، وللشعب رئيس.. وشاءت الظروف والأقدار أن يكون لهذه القرية الجبلية أمير يتحكم بهم ويحركهم كيفما تشاء مصلحته ويديرهم حسب المنافع ويدعى الأمير ((غدار بك الشهبواني)) كان يفرض الضرائب على الفلاحين البسطاء ويتقل رقابهم تحت كابوس الأتاوات والخراج، يعمل الفلاح في حقله سنة كاملة ولا يأكل غير خبز الشعير، وبقايا البرغل، وفضلات الثمار المجففة، يجعل الفلاح من الحقل جنة يأكل من ثمارها غدار الشهبواني والفلاح يعيش في جحيم بيت مقفر يرضى بفضلات الأطعمة، وبقايا ما تركتها حاشية الأمير الشهبواني...

والأمير بنى قصرًا لنفسه في صدر الجبل الأشم، ويتألف القصر من خمسة طوابق وأحجاره من الماس والمرمر واللال، على شكل هندسة عجيبة في الفن والعمران، تشعشع فيها المسارج عندما يقبل الليل ويحيط بالقصر سور شاهق طويل ويتوسط فناء الباحة البساتين الوارفة الظلال، والينابيع التي تجري أنهاراً كثرية مفعمة بالذرة والمياه السلسبيلية الصافية.. وللأمير خيول مطهمة، وفرسان يعتبرون أنفسهم من جبابرة الدهور، يخفرون في هدوء الليل الأمير ومقره وحينما يخلون إلى الأمير يركعون أمامه، مقبلين الأرض ممرغين كرامتهم على قدميه، وإطاعة الأمير من جزء لا يتجزأ من إطاعة الخالق.. وأنه لولا الأمير ما كانوا في الحياة.. وأن الرزاق وواجب الخيرات لهم هو الأمير نفسه والخروج عن إطاعة الأمير يعتبر عاصياً لذنب لا يغتفر ومجرماً يلقي قصاصه العادل.. وكانوا يستشهدون بأقوال الأمير في مجالسهم ما تترده ألسنتهم عن أقواله: (الناس درجات، والرزق محدود، مهما كدح المرء وعمل فإنه لا ينال إلا رزقه ومن ولد فقيراً سيحيا فقيراً، ومن خلق في بيئة غنية فإنه سيبقى غنياً وابن الشرف الموروث وابن العائلة الكبيرة لا يخطئ أبداً يجب تقديس آرائه والانصياع لأوامره، والامتثال لأقواله..

## الفصل السادس

ويتمتع الأمير بثلة من المشرعين الذين يسنون القوانين بمشيبته فيحكمون على هذا بالإعدام وعلى ذلك بالسجن وعلى الآخر بالنفي، كل واحد حسب جرمه وما اقترفت يده... وقد اوجد الأمير في القصر سجنا مخيفا وهو بئر عميق يزيد عمقه عن خمسة أمتار ففي كل صباح ومساء يلقي السجنان رغيفا من خبز الشعير المعفن إلى السجنين ولا يخرج السجنين من السجن إلا وقد انهكت قواه، وهزل جسمه وضعف حوله، وقد أشبع جسده من سياط الفيلة لا يقدر الوقوف على قدميه ومن ثم يذهب به إلى الأمير وهو معصوب العينين، ومكبل اليدين، ويركع أمامه ثم يقف أمام الأمير ويتوب توبة أبدية لا عودة للذنب أبداً فيطلق عندئذ سراحه ويرسله إلى رعي العجول..

أما ساحة المشنقة فتحيطها لفيف من الحراس وهم مدججون بالسيوف القاطعة، والرماح السمهرية، والخناجر السنينة كل واحد واقف كالهيكل لا يتحرك ولا يتزحزح من مكانه عيونه إلى رئيس الحرس لتلقي الأوامر، وتنفيذ الإيعازات وعود المشنقة غليظ وطويل يترنح الحبل فيه يمينا وشمالا إنه مشهد مخيف، ومنظر رهيب يسيطر الموت فيه الفاجعة الأليمة والشقاء المروع ويخط الفناء فيه صوراً كالأحلام الظلم والفتك بالطبقة المسحوقة من المجتمع... وقد كتبت على باب السجن، وعلى عود الإعدام ((حوض الموت)) إن الجبان الذليل الذي يدخل مرة إلى ذلك المشهد يفقد رجولته، وترتجف فرائصه من هول ما رأى وتتحطم معنوياته، ولن يعود إلى حالته الطبيعية إلا بعد وقت ليس بقصير ويرى الأشباح المخيفة في يقظته والأحلام المزعجة في نومه من جن وغيلان وعفاريت أما الجريء والذي باع روحه وجسده للكرامة يتحول حوض الموت أمام عينيه إلى جنات معطرة بالرياحين والسجن إلى قصر يناطح السحاب في علوه ينكمش الموت أمام وقفته ويتشبث بأذيال الهزيمة أمام إقدامه وينظر إلى الأمير باحتقار وازدراء يتحول الأمير أمام نظره إلى قزم ضئيل وعجوز عقيم.. والحراس إلى قطط، وأرانب جنباء، ويزمجر في وجههم كالرعد الذي يهز جنبات الأرض، فتتضايق الروح في قفص الجسد يريد الانطلاق والفرار من سجن الجسد والالتحاق بالرفيق الأعلى... يرى أنوار العدالة تشعشع في السماء ونجوم الحق في صفحات الشهادة يسلم نفسه للرحيل وختم جواز سفره بدمه القرمزي ليسافر إلى رياض مأهولة إلى سدرة المنتهى وعندها جنة المأوى.. في سبيل تشييد فردوس لأولئك المساكين المقهورين.. ويترك الأمير الحبل على غاربه لخدمته ووزرائه في

نهب أموال الفلاحين، وسلب ممتلكاتهم المادية... يسوقونهم إلى حقل الفلاحة مع محراثهم الخشبي القديم كسوق النعاج والعجول المسكينة التي لم تشبع من بقايا التبن المخزون في أعوار الكهوف تقود المحراث وتثقب الأرض طوال النهار فالاضطهاد والغبن لم يلاحق الفلاح فحسب بل بقطعان عجوله وأسرته وأطفاله الصغار لم يجدوا في مساء من أمسياتهم مائدة تثير الشهية، وتحرك النفس طعام يعيد نفسه كل يوم، لا جديد في الطبخ لديهم، لا يتعدى طعامهم خبز الشعير، وبعض الأعشاب البرية وفضلات من الثمار المجففة من التين اليابس، وقليل من الزبيب والدبس المصنوع من العنب... وكمية قليلة من السمن والعسل وضعوها في جرة مصنوعة من الطين تركوها لأيام الشتاء الباردة عندما يهاجم مرض الزمهرير إلى جسمهم ليتناولوا منها الدواء لمرضهم وشفاء لعللهم...

والفقر إخطبوط شرس، يعيش في أعماق الأسرة منازل للديدان، وبيوتاً للأورام الخبيثة فينخر جذورها ويتغذى بدمها فتغدو حياة الأسرة جحيماً لا يطاق.

هكذا يختصر الفلاحون بالموت البطيء وعند سكرات النزع الأخير، يتجاهلون عدوهم ومن هو قاتلهم؟ وما السبيل؟ وما الخلاص؟ لا أحد يوقظهم من سباتهم ومن ذا الذي ينفخ في روعهم آية الانبعاث وسورة الاستيقاظ؟ في كل ليلة يجتمع الفلاحون في قصر الأمير يتحدثون عن نتائجهم في الحقل والمرعى وما أدوه من خدمات لأمرهم المبجل، والأمير جالس على كرسي من زبرجد وقد امتشق سيفاً من ذهب، وعيونه تتلظى بالشرر وأحاط به حراس مسلحون، والقوم في ذهول ووجوم ينظرون إلى الأرض أمامهم كأنهم يبحثون عن ملجأ ينشلهم من حياة الذل إلى الغفلة الأبدية... ثم تأتي جوقة الموسيقى تمجد الأمير وسلالته يعزفون على قيثارة خفيفة الأوتار تغزو الحماسة والأبهة في روع الأمير فيستشاط عظمة وافتخاراً من الحان الموسيقيين وبعدهن يغني المطربون بأغان تقديس الأمير مشيداً بأعماله البطولية الخالدة، وانتصاراته الباهرة، وفي نهاية الحفل يقدمون عربون صدق ووفاء ويهتفون بخلود الأمير. ثم يأتي دور القصاصين والمنجمين يحكون عن أساطير موهلة في القدم من صور خيالية تشبه الخرافة وبعيدة عن واقع المنطق فيندهش السامعون من حكاياتهم ويرتلون قصائد المجد مؤمنين بقصصهم معتقدين بحكاياتهم.. قصصهم تحوي غرائب الأمور التي تتعلق بأيام السلاطين والأمراء وعن قلاعهم المنيعة، وأبراجهم العظيمة... والأمير صاغ إلى حديثهم وتأويلاتهم وقد دخل النعاس بين جفونه وأوشك إلى النوم ثم يأمر ممثل الأمير القوم بالانصراف بعد أن ولى ثلثي الليل وبقي من الظلام الهزيع الأخير من عمره....

## الفصل السابع

وكثيرا ما يجتمع الفلاحون بعد انجاز أعمالهم في الحقل أو في المرعى أو أي عمل آخر ويتنفسون الصعداء ما غشيتهم من أكرار واتكال منهم بحريته معبرا عن آرائه موضحا مقاصده.. هذا يضحك بحرية تامة مع جليسه وذلك يحكي قصة غرامية مع فتاة ريفه وهناك همسات تعبر بالعيون والأصابع ويحذرون بعضهم بعضا بعدم إفشاء السر ذلك السر الخفي الكامن وراء الأيام والليالي أخفته يد العداة والظالمين وأظهره الحق المبين.. إن التاريخ يتمثل بأولئك المعترفين بهم والتاريخ لا ينظر إلى الكم إنما هم معيار حقيقي صادق لأهل الثقة والحجة والانضباط.. في وسط الظلام يرتكب المجرمون جرائمهم متستريين بالليل ومعتصمين بالسواد وتطمئن قلوبهم بأنهم لم

تكتشف جرائمهم وتظهر وحشيتهم ولكن جندي الفجر، ومغاوير الشمس، وحراس النهار لا يملون عن التنقيب في أصل الجريمة عن القاتل والمقتول ما يزالون يبحثون عنها حتى يكتشف جلاء الفجر الجريمة بتفصيلاتها ويساق المجرم إلى ساحة الاعتراف متلقياً جزاءه، ومنفذاً عقوبته بما لا يفتأ الحق ملاحقة الانحراف حتى يكشف النقاب عن وجهه ويفضحه أمام الملاء، وسحب الاعتراف الشرعي منه ثم يدمغه فإذا هو زاهق..

ذلك السر الذي كان تترده أسنة الفلاحين في الليالي الظلماء والأماكن المنفردة والخالية من المراقبة وموقع الأنظار السراً هو شخصية ((خالد القرمطي)) الذي قتل في ظروف غامضة، وتكتنفها الإبهام ولكن الفلاحين عندما يذكرون اسم القرمطي تهطل الدموع من أعينهم خاشعين، متأوهين ومزجرين (الموت للظالمين)) ذكرى استشهاده (خالد القرمطي) يحج الفلاحون إلى ضريحه خفية من أعين الرقباء، ويضعون باقة من ورود النرجس والسوسن على قبره، ويقسمون العهد على الاستمرار على خطه، والبقاء على نهجه ثم يعودون ونار الثأر تتأجج في سويداء قلوبهم.. وعاطفة الإقدام تتلظى في خلجان نفوسهم.. ولكن هيهات...!! لا يستطيع السيف مجابهة البندقية، والخيل محاربة الدبابة، والخنجر مبارزة المسدس والإيمان بالمبدأ هو الذي يصنع من الحجر قنبلة ومن العصا بندقية ومن الصخور مدافعاً.. (خالد القرمطي) هو واحد من الفلاحين الذين يلمسون واقعهم ويدركون مأساتهم ثم يخططون للخلاص لشخصية بارزة بين الفلاحين يأبى الذل مهما كان نوعه، ويكره التقرب والتزلف للحكام والأمراء، ملماً بكتب التاريخ دارساً ثورة الزنج، والعباسيين ومقتل ((أبي مسلم الخراساني)) ونكبة البرامكة، وشخصية الحاكم العادل ((عمر بن عبد العزيز))

الأمير ((غدار الشهبواني)) حاول لإغرائه بالمال والمناصب فرفض، عرض له أن يستلم منصب قاضي القضاة في قصره فأبى فأجاب خالد القرمطي: أنا لا أبيع نفسي بالمناصب والمال ولا أجعل من نفسي بضاعة للبيع والشراء، خلقت للكرامة وسأمت للكرامة وسأبعث لها، وكان يبث تعاليمه في نفوس الفلاحين في أغوار الكهوف وأعماق المغاور تحت جناح الظلام الدامس...

يثير في معاقل نفوسهم جذوة الثورة، ويهيئ في داخل أفئدتهم بؤر التمرد والعصيان يتهم الأمير بأنه السارق الكبير والعدو الأول للعدالة، والرفاهية التي تتلمل في رواق القصر شيدت على أنقاض الكادحين وعمرت على أكتاف الفلاحين.

سبب فقركم أيها الفلاحون هم الأمير وقصره وحاشيته. لم يأت الأمير بأمواله وقصره من السماء ولا من نتيجة كدحه وجهده.. إنما هو نتيجة كدحكم ونضالكم فيجني ثمار أتعابكم ولا يبيق لكم غير الزوان والأشواك.. والأمير لص واللص ليس فيه صفات الشجاعة إنما يتصف بالجبن والإحجام فلا تخافوا منه ومن أسلحته ورجاله الذين هم أرانب الرجال وليس برجال... إن الله خلقكم أغنياء فلماذا تمنحون للأمير رزقكم، لم يستلم الأمير هذه الرتبة رتبة الإمارة من السماء وإنما وضعها على ظهوركم ورقابكم إن حياتكم جحيم حوّلوا واقعكم إلى فردوس، اجمعوا أمركم وقوموا قيام رجل واحد واقتلوا هذا المجرم الذي

يجثم على صدوركم، ويجوس في دياركم، ويسفك دماء الأبرياء ويفرض داء التجويع على الشيوخ والأطفال والنساء، ويهدد شرف الفلاحين وكرامتهم محلاً حرمتهم ومدناً سيادتهم وعزتهم على شقائكم يشيد سعادته وعلى فقركم يحيك خيوط الذهب والجواهر واليوافيت وعلى تعاستكم يبني قصوره، وعلى مأساتكم يقيم أفراحه وحفلاته...

إن ثوب الحرير قد صنع من أجلك فلماذا تسخر نفسك للأمير؟ لا فرق بينك وبين الأمير، لم يخلق الأمير من أمه بلباس الدمقس وتاج الإمارة على رأسه، وكتب على جبينه الإمارة، بأساليب الحيل والاستغلال والمرأوغة والاحتيال نصب نفسه أميراً على قبائل من المساكين والجهلاء.. هو الأمير الذي أوهن جسمكم، وسلب عافيتكم، وقتك بجمالكم هو الأمير الذي يتناول ما طاب من المآكل والمشرب، ويلبس أحسن اللباس، ويرقد على أسرة لينة مريحة، ويمشي على طنافس حريرية وبساط مخملية، من نتاج جهودكم يصنع سيفاً يقطع رقابكم ومن نخر كدحكم يضع سماً زعافاً لقتلكم..

## الفصل الثامن

إن أئمة الزمان، وجبابرة الدهور كعلي، وسقراط كانوا فقراء قد نصبوا من أجسامهم صراطا لشعبهم ومن نضالهم صنعوا ثمارا يانعة لقومهم فكانت أرواحهم البريئة ضمادا للجراح وبلسما للوباء إن أميركم يا سادة هو سبب شقائكم وتعاستكم هو الحوت الكبير ييلع ما تختزن خزائنكم من قمح وثمار فحطموا سلاسل العبودية وكسروا صليل الصمت الذليل، والإطاعة العمياء، طهروا أرواحكم من طواغيت الشرور و الآفاق، روضوا نفوسكم بأسلوب الثورة على واقعكم المهين وكونوا كالزلزال في وجه سيدكم الأمير بالتلاحم الفكري والروحي وبالتفاعل المطلق على النهج الثوري القويم تضحل أمام جبروتكم قلاع الشر وأبراج الظلم والظلام بتفاعدكم عن أداء المهمة وبتوانيكم عن الجهاد والمثابرة سيعشش الجحيم منازل لا في بيوتكم وفرخ الظلم ثعابين في دياركم فإن لليل والظلام مصابيح وللصحارى واحات فابحثوا عن حدائقكم جناتكم لتعيشوا في ظلالها وتمتعوا بجمالها وخيراتها....

إن السكوت على الظلم هو اعتراف به، والصمت المطبق أمام دياجير الاستعباد وهو إقرار به.. ولا تصنعوا لأطفالكم أقفاص العبودية، ولا تورثوا لأولادكم سجون العوز والفاقة... فلتشمخ رؤوسكم إلى العلا مثل هذه الجبال التي لا ترضع من ثدي العبودية أبدا إن جبالكم باتت يتيمة بلا أصحاب فكافحوا من أجل أن تسترد عزتها وتتجلى هيبتها... جبالكم يا سادة فرّ منها الأسود والأمنار والصقور وتعيش فيها اليوم والأرانب والثعالب وبنات أوى والغربان...

إن هيبة الجبال بأسودها وأمنارها... والثعلب قد لبس جلد الأسد، وكل رأسه بتاجه وسمى نفسه بأجلّ الألقاب، وأرفع الأسماء... قوموا واذهبوا إلى ذاك الليث المنافق الملون والمزور واسحبوا جلد الأسد من جسمه ليبقى عاريا وافضحوه أمام الناس إن الثعلب قد لبس جلد الأسد.. متكرا لأصله..

إن الأصالة هي البنية الصحيحة في كتاب الحياة والتلفيق والتزوير حدث مصطنع، وتلوين مؤقت سرعان ما يتلاشى ويضمحل أمام عناصر الطبيعة وتقلبات الأيام والليالي..

إنّ أميركم قد هزمكم من القصور إلى الكهوف، وسلب منكم عافيتكم ووهبكم العلل الخبيثة.. وحرّمكم من ملذات الحياة ودفعكم إلى مغاور الفقر، ونار الإفلاس.. هيا بكم أيها المظلومون إلى حمل السلاح في وجه الطاغية لتصنعوا فردوسا من جنات وعيون وكنوز ومقام كريم...  
قد وهبتكم السماء كل ما تريدون ولكنكم لا تعرفون تصرّفها، وتجهلون ترتيبها وتصنيفها.  
إنّ طاقتكم العضلية والنفسية والفكرية يستغلها الأمير ويصرفها في شؤونه الخاصة وإن مهنتكم وأعمالكم تعود بريح كبير على الأمير وحاشيته. إنكم لستم أصحاب أنفسكم ولستم أسياد شخصياتكم، إنكم عبيد الأمير وخدامه حرروا أنفسكم من جبروته وأطلقوا العنان لحرّياتكم واهتقوا بالثورة على واقعكم الدليل....  
يعتبر خالد القرمطي دماغا كبيرا من بين أدمغة الفلاحين ورأسا كبيرا من رؤوسهم.. توقف الدماغ فجأة وسكت القلب عن الخفقان....  
وعندما أدرك الأمير ((غدار بك الشهبواني)) ما يبثه خالد القرمطي من تعاليم وأفكار ثورية بين صفوف الفلاحين ويهتز عرشه يوما بعد يوم نتيجة الأفكار المضادة لملكه وقصره والنضال الفكري هو المقدمة الأولى للجهاد المسلح إشعال النار في أقحاف الرؤوس ثم إشعال الثورة في صفوف الجماهير فأبلغ أعوانه بأن ((خالد القرمطي)) ينشر أفكارا مسمومة بين الشعب فهو يحرض القوم إلى التجرد من طاعة الأمير والتبرؤ من حكمه والانقضاض عليه كالصقر المهماز... أرسل الأمير رجاله لإلقاء القبض عليه وتسليمه إلى عدالة الأمير ليلقى جزاء ما اقترفت يداه.. ولما جاءوا إليه وكبلوا يديه وقدميه بالأغلال وتعذيب جسده بالسياط فأجابهم ورأسه مرفوع إلى السماء، وصدّره بارز إلى الأعلى وما أنتم إلا أداة في يد سيدكم يدير بكم ما يشاء وأنتم لا تفقهون قصده ولغزه...  
لو فعلت فعلتكم لكنت اليوم رائدا من رواد القصر ولكن الذل بالرّفاهية علقم مرير، والغر بالجوع بلسم للروح، وعزة في الكيان....  
سوف يأتي يوم ستجرون إلى ساحات الموت كما تسحبونني إلى روض الحرية... وتندمون وعندئذ لا ينفع الندم...  
فكر جنود الأمير بكلماته غير أنهم سرعان ما غيروا رأيهم وأصروا على جره إلى محكمة القصر ..  
وعندما مثلوه أمام الأمير كانت عيناه تحرق بالنار والنور تخط على جبينه ملحمة الكبرياء فأوعز الأمير إلى جنده بقطع يديه ورجليه أمام الفلاحين ثم بقطع رأسه ليكون عبرة للمعتبرين، ودرسا للدارسين ..  
وهكذا نفذت الجريمة بأشع صورة مأساوية والناس متفرقون في رأيهم منهم من يشمئز من فعل الأمير ولكن بصورة سرية ومنهم من يفرح بقتله منددا به يهز الرأس لهؤلاء وهؤلاء من الفريقين ..  
ووضع جثة خالد القرمطي في كيس عتيق مهترئ ودفنوه في وادٍ قريب من قريته ولم يسمح الأمير بدفنه في القبور العامة، وهكذا أضحى قبره منارا للمناضلين، وقبلة

للمظلومين ينهلون منه عزمهم وإصرارهم على مواصلة الكفاح طاردا فيهم ضباب اليأس وأشباح الملل..

وقد غدا اسم خالد القرمطي ناقوسا يدق الأدمغة النائمة واقترن اسمه بألفاظ ثورية يرمز إلى العز والكبرياء يردده الفلاحون في عقر ديارهم عندما ينفردون.. ففي مناسبات الشجاعة ومقارعة الظلم يكون اسمه فاتحة المناسبة لجلسة الاستفتاح ويختتم الحفل بخلود اسمه وقراءة تحية إكبار لموقفه المشرف ..

بات اسمه جرسا يوقظ الغافلين، ويحيي الموتى كالنافخ في الصور، وتتوالى الأيام فبدا يرسخ في ذاكرة الفلاحين حتى أصبح أسطورة باقية، وعنوانا بارزا لكل المضطهدين ..

الشهداء مشاعل وضاء تضيء طريق الحرية أمام شعوبهم فهم كالشمس المضيء تستمد سراجها من ذاتها وتضيء ما حولها ولا تعرف الانطفاء والظلام..

أولئك الذين يحضرون تربة قلوب شعوبهم ويغرسون فيها بذور الحرية ويرونها بالدماء حتى تغدو شجرة باسقة لا تعرف الانحناء والخضوع ..

هل تستطيع العين الباصرة نكران وهج الشمس؟

هل يقدر أحد أن ينكر دم الشهيد؟

يستمد الشهيد عظمته من ذاته، إذ جعل من جسده شاهدا واضحا لمعاني التضحية ومنتهى نكران الذات، ولم يترك مجالا لأولئك المتهافتين والمتشدقين وإزالة أوكار الالتباس و مظان الشك والريب ..

ينقش الشهيد بدمه تاريخ شعبه، راسما ظله في حوض أمته، وفرض نفسه فرضا في أحلك الظروف ظلمة رافضا رغبات النفس، وشهوات الجسد ..

فالشهيد هو النافخ في جسد الأمة روحا جديدة ويسلك طريقا مرصوفا بالعظام والجمام، يعيش ثائرا ويموت جبارا عزيزا مهيمنا ينزع الشوق بهارج الحياة عن بصره فيشاهد تحت ظلال الفردوس وقد حمل لواء الحرية مكلا بنشوة الانتصار ويرى الحياة خيالا والجسد سجنا ضيقا، ويزهق روحه زارعا جسده في تربة الوطن في سبيل الاعتناق من العبودية والانضمام إلى مسارح الملاء الأعلى، ذلك الفارس المغوار يمتطي صهوة الشهادة، يخفر في هدوء الليل مذبح الحرية ويهمس في أذني الدجى أنشودة النصر ينبئ بقرب الفجر واندحار الظلام، تعجز الألسنة عن وصفه، تخرس الحياة أمام هولته ويتحير القلم، ويضج القرطاس أمام مشهده، هو الجرس والمنبه في ذاكرة الشعوب كلما طفق الكيل، يعيش في ضمير أمته ويكتب التاريخ عنه شعاعاً من نور، تقف الأمة على قدميها بصلاصة شهدائها، ويخوض الشهيد بحرا من الدماء مشيدا صرحا عاليا من صروح النور وسط شفق أحمر قارئا وسط اللهب قصيدة الحرية مزجرا في وجه الجلادين، هو ذلك النموذج الذي خلقه النضال ويبنى عالما حرا يرفرف عليه علم السيادة وراية الحرية وقد ذاب في أمته كشأن الشمعة تحرق روحها لتكون منارا هاديا تضيء ما حولها، فهو فاتحة صامته الثورة عنيفة وعلى شفثيه ابتسامه محزنة تنطق عن شرارة وهاجة فهو خلاصة الحياة وعصارة النضال، تحية إلى الشهداء البررة الذين كتبوا بدمائهم قدسية الحرية .

(خالد القرمطي) شهيد الكلمة الخالدة، والصرخة العاتية في وجه سفاح دماء الشعوب فتبرع بجسمه إلى تربة الوطن ليكون قرصنة تسحق أعداء الشعوب. أثر نفسه أن يكون فتيل قنبلة يحرق سماصرة الشعوب وديدان الأمم..  
لم يكن خالد القرمطي التشهيد الأول والأخير في سياسة الأمير الظالمة بل مئات من الشهداء لا قوا حتفهم في غياهب السجون وقطعت رؤوسهم بسيوف جلاديه وذلك بصورة سرية ثم يتهمهم الأمير بالسرقة تارة وعدم تنفيذ الأوامر تارة أخرى فغدا حياة الفلاحين سعيرا لا يطاق لا يدرون متى تختطفهم المنايا وتفترسهم الموت الزوام فباتوا على مضض من القلق المستمر والهيجان النفسي ..

## الفصل التاسع

يثقل الأمير كاهل الفلاحين بالضرائب الثقيلة ويكسر أكتافهم تحت وطأتها وتعوج ظهورهم تحت كابوسها فإذا أكدح الفقير في أثناء الليل وأطراف النهار وطيلة أيام السنة لا يقدر أن يستوفي قيمة الضرائب التي فرضت عليه فأصبح يعاني الجهد العضلي والنفسي فخارت قواه الجسدية والفكرية لا يتحمل مشاق الحكم الجائر إلى أين يذهب؟ الأرض ملأى بالأمراء!!..

وكلهم في الجور سواء فليست الهزيمة هي الخلاص ومجابهة الحكم الدكتاتوري أمر عسير لا أحد يشد أزره ويسند ظهره فأهلك نفسه بدون نفع ولا جدوى والارتقاء في أحضانه ذل وانكسار فبات في حيرة من أمره يترقب وميض العاصفة منتظرا مشيئة القدر..

فيما إذا دخل غريب في قرية، من قرى الجبل ينبغي إعلام الأمير به، والضيف الذي ينزل إلى صديق من أصدقائه لا يستطيع الفلاح أن يستقبل ضيفه ما لم يُعلم الأمير به، وإذا شاء فلاح أن يعقد القران لابنته لابد أن يكون للأمير حصة في المهر واتخاذ القرار الشرعي من جانب الأمير وهذا ينطبق على الابن أيضا يجب تخصيص مبلغا مناسباً يمنح للأمير واستشارته وأخذ رأيه في النصيحة والبلاغ المبين.. وإن أراد الفلاح أن يسافر إلى قرية أخرى يجب تبليغ الأمير بسفره فإن أذن له سافر وإن رفض نكص على عقبه ونفذ الأمر من دون تذمر أو تردد..

## الفصل العاشر

وكثيرا ما يطلق الأمير لنفسه الحريات التامة فله الحق أن يخرج في ظلام الليل ويزور البيوت بحجة تفقد شؤون الرعية والسهر على طلبات المواطنين، والعناية بشؤونهم المادية، وفي المناسبات الروحية والاجتماعية فقصر الأمير هو الكعبة العظمى لجميع الفلاحين، ففي الأعياد الدينية يأتي الناس ذرافات ووحدانا ومن لم يحضر إلى القصر يعتبر عيده لاغيا ويحاسب على غيابه ولذلك يكون القصر مليئا بالناس كل واحد من الفلاحين يدخل على الأمير ورأسه منكس إلى الأرض ثم يذهب إليه مقبلا يديه ويدعو له بطول العمر والحياة السعيدة ويعود بأدراجه إلى عتبة الباب ويجلس خاشعا متضرعا وتضرب دقات قلبه بسرعة، ويتنفس الصعداء تارة وينظر إلى الوجوه باحتراس وحذر شديدين وينتظر سيجارة غليظة من أفخر أنواع التبغ من أعوان الأمير وعندما يتلقى السيجارة راح يتمتع بها كأنها فرصة العمر ولحظات ذهبية من حياته ثم يخرج من القصر واضعا يدي الأمير على رأسه داعيا له بتاج الصحة والرفاهية وعند وصوله إلى البيت يتحدث لأبنائه ولزوجته عن القصر وجماله والخيرات الوفيرة فيها فتسيل المياه من لعاب الأسرة عند الحديث عن الملذات من المأكول والمشرب وأن الأمير هو بمثابة أبيهم فهو الذي يرعاهم ويحرسهم ولولا الأمير لأصبحت المنطقة هذه تحت حوافر وسنابك خيول الأعداء وتحولت هذه القرى إلى قاع صفصف تبكي فيها معالم حضارتها وتحولت هذه البساتين إلى قفراء، وصحراء قاحلة فالأمير يصون لنا كرامتنا وكرومنا وحقولنا أمداً الله بعمره وسدد خطاه ثم يهتف الجميع ((أمين)) يا رب..

## الفصل الحادي عشر

وفي الحفلات الاجتماعية كالاحتفال بعيد ميلاد الأمير أو إقامة الأعراس لأبناء الأمير وذويه فتخرج النساء بأزيائهن الفولكلورية الكلاسيكية، وقد وضعن ريش طير النعامة على رؤوسهن ولبسن الإزار الذي يمسح الأرض، والكوفية التي تملأ رؤوسهن إذ يشكلن رتلا دائريا أثناء الرقص في ساح القرية وأمام قصر الأمير ويتوسط الحفل الموسيقيون أصحاب الطرب والمزامير فتضرب الحماسة في رؤوسهم فلا يملون من المتابعة من متابعة النفخ في مزاميرهم وقرع الطبول، والعيون محدقة إلى الغيد الحسان ..

ثم يختلط الفلاحون بالنساء في مهرجان كبير كرنفال واسع جميل وقد لبسوا الأحذية الحمراء والطرابيش البيضاء على رؤوسهم والسراويل السمراء تغط قاماتهم فإذا هم يرقصون ويبتهجون بهذا اليوم الأغر الذي هو يوم العمر ..

هناك شاب يغمز لفتاة أحبها، يتبادلان لغة الغزل والعيون تتغزل والبسمات ترتسم على الوجوه ثم يأتي دور المباراة فينزل أحدهم إلى ساحة الحفل ويطلب المباراة فيخرج شاب قوي البنية، مفتول الساعدين مبارزا خصمه في الكر والفر ثم يطلق الفرسان خيولهم الأصيلة في مباراة السباق .. وعندما يدخل الأمير إلى حلقة الرقص يهلل الجميع بخلوده وديمومة حكمه ويصل الحفل إلى قمة الطرب والفرح ويتحمس الراقصون فيضعون فنونا مختلفة في غاية البهلوانية والخفة في الرقص الشعبي فينحدر الحفل بوجود الأمير فكل محتفل قد نسي نفسه والتحمت روحه إلى مسارح الفرحة والابتهاج.

إن الجسد يتلذذ بالعذاب عند سمو الروح وضعف الجسد يعني تغذية الروح ومهما تعذب الجسد فالروح يتقوى ويتحصن ويتأصل ..ومن سمن جسمه بالشحم واللحم وغلظت رقبته فقد ضعفت روحه ومن هزلت روحه فقد التحق بركب البهائم والغرائز الحيوانية ..إن المهم في الإنسان حركة الروح فالروح إشعاع توجيهي يوجه الجسد إلى سبر أغوار الحقيقة وإذا تجرد الروح عن الجسد بات الجسد جثة منهاراً لا ربح وراءه ولا نفع ..

فكانت أرواح الراقصين توعد إلى أجسامهم بالحركة الدعوية والتفنن البارع في صنع ملاحم الرقص فتحولت الساحة إلى ميدان للتسابق والمبارزة في منتهى الرقص التصوفي ..

في هذا العرض الشعبي الذي ينطبع بطبائع الفرح يترك بصماته المأساوية فالفرح يورث حزناً والابتهاج يولد أسى.

التجمع السكاني هذا نساء ورجالا كأنه هو سوق بهيج لعرض الأزياء واقتراس الجمال في هذا السوق المثير فينتهز الأمير هذه المناسبات ليصيد الغادة الحسناء من بين قطيع الغزلان فتقع عين الأمير عليها فتفترسها تحت جناح الظلام ..كما أن الذئب يفترس النعجة في ظلمة الليل فالاحتفالات هذه هي تجارة رابحة للأمير وخسارة كبيرة للفلاحين الذين يفقدون فيها شرف الكرامة ..في هذا الحفل الكبير يختار الأمير أحسن الفتيات ليفرغ فيها شهوته الهمجية ثم يتركها لوحش الجوع والفاقة ويصب فيها غرائزه الدفينة في التسلط وانتهاك الحرمات ..وما الاحتفال هذا إلا تحقيق لإرواء نار الشهوة للأمير وتنفيذ مآربه الجنسية ..وسرعان ما يتحول العرس إلى مأتم فيفلق الفلاح الذي يملك زوجة بارعة في الجمال فيخاف من اختطاف الذئب لها عندما ينشر الليل ثوبه الأسود على جسد الأرض ..

## الفصل الثاني عشر

بينما كانت ((خنساء المشرفية)) تقود دائرة الرقص الشعبي بحماس وإقدام نادرين وكأنها زنبقة بيضاء وسط جحفل جماهيري ولها عينان كجزيرة الأحلام وصدر كالسجنج، وفم قرمزي مكلل بقطر الندى وشفتان رقيقتان حمراوتان ووجه يكتب الجمال عليه منتهى الروعة والبهاء وشعر مسترسل فاحم اللون كظلمة الليل وسط شفق من نور وعنق كعمود العاج ..وقد لبست أزهى الأثواب التي تدهش المتفرجين وتأخذ بألبابهم ،والناس مختلفون في النظر إليها فمنهم من يتمنى أن تكون خنساء

أخته ومنهم من يأمل أن تكون زوجته، ومنهم من يقول إنها غادة من بين الغيد الحسان، وغزال من بين قطيع الغزلان. كانت ترقص والنفوس تبتهج لرقصها وتضطرب لحركاتها، إن كل ما في الوجود تتحرك لفنها وتترجرج لبراعتها كأنها مليكة جان من عرائس الجانّ قد هبطت على الأرض تريد أن تعلم البشر فنا جديدا من فنون الإبداع والاختراع عندما تهز بدنها فكأن الجسم كتلة واحدة خالية من العظام والمفاصل فيرتبك الطبّالون والزمّارون أمام رائعة الفن، وفتنة السحر والجمال..

((خنساء)) هي زوجة ((يوسف الجبلي)) الذي اشتهر بين الفلاحين بريابطة الجأش والشجاعة النادرة والمهابة الشخصية وتحليل الأمور بروية وصبر ويكره التملق مع الأمراء وذوي الجاه والسلطان..

إنه يعيش على كسب يديه قانعا معتزّا بكرامته ويتميز بين الفلاحين بأنه شخصية قوية لا أحد يقدر مناقشته، وإذا أصدر قرارا من الصعب جدا الرجوع عن القرار، غير أنه لا يحب الكلام الرخيص، وإذا تكلم كان حديثه موجزا شاملا مستقيضا، وفي أصعب الظروف لم يكشف سره لأحد، ولم يطلب النجدة لأعز الأصدقاء ولا يظهر نفسه بمظهر الضعيف اليائس ولم يتورع عن خطأ يصدر من جانب الفلاحين وتتجلى شخصيته في الكرم ونصرة المظلوم والأخذ بأيدي المعوزين والدهماء يرحب بالفلاحين في بيته ويقدم لهم ما يملك من أحسن المأكولات من حسن الضيافة. وينحدر ((يوسف)) من سلالة عريقة كان أبوه يحظى بشعبية واسعة بين الفلاحين وكان بيته مزارا يزوره الناس من كل فج عميق لكنه قتل في ظروف غامضة ولا يعرف قبره حتى الآن ويقال بأنه قاد ثورة ضد الأمير لكنها فشلت مما دفع ثمن الفشل عنقه..

وهكذا كانت العلاقة بين يوسف والأمير علاقة متوترة وحاول الأمير التقرب إليه وإغرائه بالمناصب وتولي شؤون الإمارة فرفض وكان يقول للأمير أن أعمل حطابا في الجبل أفضل أن أكون وزيرا لديك فكان لا يكثرث بوعيد الأمير وسلطته يناجي نفسه قائلا ((الأرنب قد أصبح أسدا، والقطة قد باتت نمرا، واللص قد أصبح حاكما عادلا، والغراب أضحى بلبلا والفأر قد أصبح غواصا يغزو قاع البحر)) فقد كان العداء بينهما هادئا مبطنا بغلاف الكراهية والحقد الدفين والانتقام المثير وكل واحد يراقب الآخر بحنكة ودهاء منتهزا الفرصة المناسبة للانقضاض على خصمه..

## الفصل الثالث عشر

وعندما كانت (خنساء) امرأة يوسف تتصدر مركز الصدارة في موكب الحفل المهيّب وتبتكر أحدث أنواع فنون الرقص الشعبي نافخة في هيكل الحفل روحا جديدة من البهجة والسرور غارسة في نفوس الشباب أنشودة الأمل والحياة راسخة في أذهانهم نشيد الحرية المعطر بهالة المجد.

في تلك اللحظات الدقيقة من عمر الزمن كان الأمير ((غدار بك الشهواني)) يختلس نظرات الخبث والمكر لخنساء يرنو إليها بازدراء وتحقير ويقول في نفسه سأنتهز فرصة غياب يوسف في ليلة من ليالي الشتاء الباردة، وسأكون ضيفا ثقيلا عليك حينئذ سأضاجعك على قدم وساق وسأعلمك الرقص كيف يكون وسوف أجعلك ذليلة صاغرة بين الناس ستلوذين بالفرار كلما واجهت حشدا من المملأ وعندما تقفين أمامي، عيونك إلى الأرض ولسانك مبتور ورأسك منكس إلى الأسفل، سأقتل منك هذا الحماس الشجي وهذا الفن الفتى هذا آخر احتفال تتباهين فيه وتفخرين بنفسك، وسوف أعمل على قتل يوسف (والله لأصلبنه ولأمزقنه إربا إربا وأفتح في عيونك سيلا من الدموع وأختطفك وأجعلك خادمة لي في رواق قصري).

بينما كانت خنساء منمكة في الرقص بين الفتيات والفتيان والنساء يحمسن خنساء بمتابعة الفن الشعبي، هذه الساعات التي هي أسعد لحظات تختطفها الفتيات من عمر الزمن وإذ تلمح خنساء عين الأمير ترصدها بخبث واحتيال.. وأدركت خنساء ما وراء النظرة الخائنة التي كانت ملؤها الشهوة البهيمية والحقد الأسود.. لقد تغيرت ملامحها، وتبدلت قسماات وجهها وتحولت الفرحة إلى الأسى والضحك إلى بكاء.. لقد عرفت أن هذا الوغد المحتال سينصب لها الفخاخ ليصيدها، ويهرق الأموال والأنفس على قدميها للظفر بها وتركت خنساء الاحتفال تاركة وراءها حشدا من الفتيات اللواتي في ربيع العمر وخلفت في الاحتفال أثرا باقيا لا تمحوها الأيام والليالي ثم توجهت إلى بيتها واللوعة لا تفارقها، والحسرة تؤلم فؤادها..

## الفصل الرابع عشر

جاء الخريف وملت الأشجار من ثيابها القديمة البالية فأصبحت يتيمة عارية جرداء تواجه العواصف والزوابع واكفهرت الأرض عابسة فاتحة صدرها البارز لهيجان الطبيعة بعد أن جردتها الرياح من أثوابها المبرقعة.. ولوحت السماء بواسطة غيومها السوداء بأن الزمهرير سيهاجمكم في عقر دياركم وأن الثلوج والسيول والأمطار ستسجنكم في منازلكم فاستعدوا للآتي وخذوا حاجاتكم قبل فوات الأوان .

بدأ الفلاحون يعصرون العنب ليستخرجوا منه الدبس والخمر المعتق وجلب الزيتون إلى المعاصر لاستخراج الزيت .. لقد حانت ساعة العصر وأنت لحظة الغلال وجني الثمار ..

والخريف هو فصل جني الأتعاب فصل الحساب للفلاح إذ يدرك الفلاح هل ربح في عمله هذا أم خسر فهو الميزان الدقيق والاختيار الصحيح لجهد سنة كاملة مليئة بالجهد الجهد والكدح الطويل ..

وفي هذا الفصل يملأ الفلاحون مخازنهم من القمح والشعير والعلف لأن القادم الجديد لا يرحم الجوع والحرمان .. ولهذا نلمس فيهم النشاط والسرعة في تحقيق احتياجاتهم الضرورية من الخبز والعلف للحيوانات ليستعدوا مجابهة غضب الشتاء بسلاح قوي وعزيمة ماضية..

يتمثل دكتاتورية الطبيعة بالشتاء فتجن الطبيعة وتفقد قواها العقلية وتشن هجوما طارئا على الأرض وتصل الطبيعة إلى أقصى الهيجان ومنتهى الطيش الجنوني إذ يختبئ الإنسان في منزله ، وتلتجئ الوحوش إلى أوكارها ، والبغال إلى مرايضها ، والطيور إلى أعشاشها ثم يخطب الريح أمام أبواب الكهوف والمغاور ترتل قصيدة القوة والبقاء تجرد الأشجار من أثوابها وتقتلع الأشجار الضعيفة من جذورها فتخرّ صرعى على الأرض وهي تحتضر كأنها جندي قد مزقته الهيجاء ، وجرّحته العناصر..

في هذا الفصل يبدأ الفلاحون بتقسيم فصل الشتاء إلى قسمين دور القوة ودور الضعف ويعتبر أطول فصل لديهم وذلك دليل المعاناة من طول الشتاء القارس، وتمر الأيام والليالي ثقيلة وطويلة فهم جالسون أمام المواقف متأفين متأوهين، زنابل الشعير

قد نفذت، ومخازن القمح قد شحت ومستودع العلف قد انتهى.. ففي وضح النهار يذهب الفلاح إلى الجبل راكبا بغله لقطع الحطب ليضعه وقودا في الموقد في ليل الشتاء الطويل، والنهار فاكهة الشتاء الشهية بالفقير هو الذي يذوق الأمرين فيدخل سموم البرد في جسمه ويحدث أمراضا وعللا مزمنة في صحته، فالجسم الضعيف ليس لديه مقاومة في التصدي للعلل والأمراض وهكذا لم يبق للفقير حلا سوى الصبر وانتظار الربيع على مضض والجسم الضعيف بحاجة إلى مقويات وهذا العنصر قد هجر كوخ الفقير وانزوى في قصر الغني والغني هو المتلذذ الحقيقي بهذا الفصل يستهزأ بعاديات البرد وعوارض الزمهرير وأشهى المأكولات موفورة من عسل النحل، ولحم الخراف والخمر المعتق، ولفائف التبغ الثمينة والمدافىء التي تملأ بطونها الحطب والأخشاب والقهوة الطافحة بالرغوة وإبريق الشاي الذي لا يفارق سطح المدفأة أبدا إلى جانب الألبسة الصوفية من صوف الأغنام والأرانب والثعالب.. وهكذا الغني يرحب ترحيبا حارا بقدوم الشتاء ولا يعبأ بأيامه ولياليه ويعتبره فصل الراحة والتسلية..

وعندما تطلع الشمس وتهزم الغيوم يعتبر ذلك اليوم فرصة ذهبية للفلاح المسكين لفلاحة الأرض ولجمع الحطب من أجل دفع أفلاذ كبده إذ يهمل الفلاح مبشرا بالخير ويشكر الله على نعائمه متضرعا إليه خوفا من عقابه طالبا العفو والمغفرة له..

## الفصل الخامس عشر

يختار الأمير نساء الفلاحين اللواتي يشعشع الجمال فيهن وذلك بواسطة أذنايه الذين ينفذون رغبات الأمير الجنسية .

هؤلاء العملاء يراقبون الفلاحين عن كثب يستغلون فرصة غياب الفلاحين الذين يتركون بيوتهم إما لحلب الحطب أو فلاحة الأرض أو لتأمين حاجياتهم الضرورية ثم يخبرون الأمير بغيابه فيتوجه توا إلى بيت الفلاح ليصب غرائزه الشهوانية في رحم المرأة المسكينة منتهاك شرفها وكرامتها وذلك بأساليب الضغط والقسر والتهديد فتخضع المرأة لأوامره خوفا من عقوبة يفرضها الأمير على زوجها إما بطرده من القرية أو سجنه في زنزانة مظلمة أو محاربتة اقتصاديا بفرض الضرائب الباهظة عليه مختلقا أذارا واهية لإنزال العقوبة به..

من هنا تسكت المرأة الفقيرة أمام ويلاته وتكتم سرها حتى لزوجها خشية من نتائج وخيمة وعواقب مأساوية فاجعة..

يستفحل البلاء وتتعاظم البلية بالإضافة إلى داء الفقر، وهناك كابوس أشد منه هو انتهاك الأعراض.. في ليلة ظلماء من ليالي الشتاء الباردة رقدت الحياة فيها ونام

السكان والأهلون ولم يبق غير زمهري هائج، وبرد قارس يهز أركان بيوت الفقراء يهددهم بالدمار والخراب ويرمز إلى أن الحياة للقوي وأن العزة والمجد للجبار .. وريح تنن أنين المحتضر ممثلا واقع المساكين الذين يرتجفون أمام عزم الطبيعة وقساوتها، وتلج يكفن الأرض بأكفانها ثم تأتي العواصف لتتلو آيات التلقين على رأس الأرض والرعد والبرق من أخطر الأسلحة السماوية التي تحارب الأرض إذ يتصاعد جو الحرب، ويستعر رحي المعارك وسط حمم يتلظى بألسنة اللهب، وفيضانات تحفر أخاديد الأرض وتشق الطريق لنفسها لتستقر في مساكن وملاجئ لها ..

هكذا صبّت السماء غضبتها على الفلاحين الفقراء بما أوتيت من أسلحة الفتك والدمار وفرغت جعبتها من أقوى أسلحتها .. ففي هذا الوقت العصيب واللحظة الحرجة تصل الأخبار إلى الأمير ((غدار بك الشهواني)) بأن يوسف الجبلي غائب عن بيته فهو يقطع الحطب في الجبل ومازال معتصما في كهف الجبل ينتظر فيلق الصباح، وبزوغ الفجر.. وأن زوجته ((خنساء المشرفية)) هي وحدها في البيت تنتظر مجيء زوجها فاستعد الأمير ليكون ضيفا عليها في هذه الليلة الباردة فلبس أحسن اللباس، وعطر نفسه بشذى العطور ذوات الروائح النرجسية .. وشد الرحال متوجها إلى منزل يوسف الجبلي ..

كانت خنساء تنتظر مجيء يوسف، وتسمع تارة ولولة الرياح وزمجرة الرعد والبرق، ونباح الكلاب وعويل الذئاب تارة أخرى، وقد ضعفت النار وترك رمادا في الموقد وتحركت خنساء بألة حديدية جمر النار وتنفخ في الموقد لاشتعاله وإحياء النار من جديد، وكلما عصفت الرياح ارتجفت باب البيت من بأسها واهتز عمود البيت من أساسه، بيت يوسف مسقوف بالتراب وبابه من خشب ضعيف يقدر أي امرئ كسر الباب عنوة وانتهاك حرم البيت .. وصل الأمير إلى منزل يوسف وهو متحمس إلى أقصى درجات الحماسة، والحياة كلها تافهة أمامه وأظلمت الدنيا أمام عينيه فوجد سعادة الحياة تكمن في أحضان خنساء وكان سعيدا في منتهى السعادة، ومنذفعا في غاية الاندفاع، لا يطيق صبرا ولا انتظارا فكان يمشي بسرعة الرصاص في سبيل تحقيق الهدف بالسرعة الممكنة ..

طرق الأمير الباب وقامت خنساء وقالت : من الطارق ؟ وتغيرت ملامحها، وتقلصت سرائر وجهها من هول ما سمعت فقد عرفت صوت الأمير، وكان ليوسف سيف بتار قد أخفاه عن الأعين وراء عتبة الباب وأجاب الأمير : أنا أميرك المبجل صاحب الجمال المطلق، والأيدي الناعمة، واللباس الحريري والعطور المتنوعة بالروائح الطيبة وابن العائلة المقدسة، وصاحب الحول والطول في هذا البلد الأمين فأجابت خنساء وبجراحة نادرة : لست أميرا أيها اللص الجبان إنما أميرى هو يوسف الجبلي وإن الشرف حياتنا وسعادتنا، نحن فقراء ولكننا شرفاء وإن الحذاء الذي ينتعله يوسف هو أفضل منك ومن قصورك فعذ إلى قصرك أيها الأحق الغبي نحن لسنا مثل أذنايك الذين يقدمون لك الغالي والرخيص في سبيل إسعادك، إن الخبز المعفن الذي نأكله أفضل من جواهرك ولأنك الثمينة فارجع إلى حيث ما جئت أيها الخسيس فالموت رخيص أمام الشرف ((المنية ولا الدنيا !!)) ..

ولما علم الأمير أن السيل قد بلغ الزبي ، وطفح الكيل !!.. وباللين والملاطفة لا يمكن فتح الباب ، التجأ إلى قوته الجسدية سحب الخنجر الذهبي من غمده ، ووجه ضربته القوية إلى الباب فانكسر الباب وضرب بقدمه على قاعدة الباب ودخل إلى حجرة البيت ..

ماذا تفعل المسكينة خنساء بالقوة العضلية لا تستطيع الدفاع عن نفسها لأن الأمير وحش كاسر يتغذى بأشهى المأكولات وهو متمرس على الفروسية ومهما يكن فالمرأة ضعيفة أمام قوة الرجل فوقف الأمير في وسط الدار وقوف الجبار المنتصر وسط معركة لم تنتهي بعد عندئذ لجأت خنساء إلى الانصياع والطاعة وقالت : يمكن للأمير أن يجلس أمام الموقد وينتظرنى بضع لحظات لكي أهيا نفسي وأزين جسمي وأعطر بدني ثم أقدم جمالي للأمير ..

اطمأن الأمير من كلامها وفرح من بشرها السارة وجلس أمام الموقد وهو مطمئن البال ، قرير العين ينتظر انتهاء خنساء من الزينة وتسريح الشعر ، ونشر العطور في جسمها ..

في تلك اللحظات المتوترة راودتها أفكار وهواجس وناجت نفسها قائلة : رباها!! ماذا أفعل؟! لقد وقعت الغزال بين مخالب ذئب أغبر يريد اقتراسه هل تستسلم الغزال أم تقاوم إلى الرمق الأخير فكان الجواب الموت خير طيب لهذا البلاء العظيم .. لقد دخل في بستانك يا يوسف خنزير بري يلعب ويمرح فيه وجعله مرتعا لصولاته وجولاته تعال وعجل أوشك البستان إلى الاندثار والضياع!! ها قد هجم الغراب على كرمة العنب فأسرع يا يوسف وخلص كرمك من هجمته الشرسة ..

إن حقلك مهدد بالفناء فأنقذ ورودك وزهورك من بين مخالب هذا الإخطبوط الأسود

.. لقد تفشى الطاعون في بيتك فهلّم إلى إنقاذ اهلك من شره وبلائه .. فقد استشرى الوباء في منزلك فعجّل قد اقترب الموت وأوشكت الكارثة أن تقع .. إن شجرتك الصنوبرية قد دخل الدود فيها وبدأ ينخر جسدها فأناديك من الأعماق وفؤادي يستتجد بك لقطع دابر الدود اللدود.. إن أسرارك يعبث بها يد جاهلة ونفس أمّارة بالسوء .. لقد هجم المغول على ملاحمك البطولية ، وتاريخك المشرق ليستعمرها ويزيلها من أصل الوجود ويشوه نضالكم الزاخر بالكبرياء والعفة ..

إن الإناء الذي تشربه قد دخل فيه جرثوم مسموم فتعال وامحقه محقا .. ها قد دخل اللص إلى محرابك ليسرق كرامتك وشرفك وما قيمة الإنسان إذا جردناه من هذه المادة الهامة في كيان المجتمع الأصيل ؟.. ثم فكرت وأوجدت حلا لها ثم قالت : أنا اليوم !! أمثلُ يوسف الجبلي .. لقد علمني البطولة والفداء ولقنتني فنون القتال لمجابهة اللص المارق .. سوف احمي بستان يوسف وسأكون خير حارس وخير أمين له ولن اسمح لأيد قذرة أن تدنسه أو أن تمسه وتستولي عليه ..

بينما كانت تناجي نفسها والأمير جالس أمام الموقد ينتظر متى يتم العناق والجماع وسيف يوسف كان معلقا وراء الباب لم ينتبه الأمير إليه ..  
وبسرعة البرق وإقدام لا مثيل له بما تملك من قوة وجرأة امتشقت السيف وضربت به عنق الأمير وطفق جسم الأمير يرقص من الذبح فقطع رأسه ولطخ جسمه بالدماء الملوث وامتأ الموقد بدمائه .. وانطفأ بصيص الجمر بين الرماد .. وانتهت المعركة بانتصار خنساء على المعتدي الغادر .. فكرت خنساء وقالت : ماذا أفعل بهذه الجثة فإن بقيت حتى الصباح فالجريمة تشهد علي بالحجة الدامغة فلا بدّ من ترحيل الجثة وإلقائها في كهف قديم جدا لم يجرأ أحد من الناس حتى الآن دخول ذلك الكهف وكان يلقب (كهف الجن والغيلان) ووضع الجثة والرأس في كيس كبير وحملت الكيس قاصدة (كهف الجن) الكائن على سفح الجبل وحملت سيف يوسف للدفاع عن نفسها من الوحوش الضواري ، كان الليل يحتضر في بقية حياته الأخيرة والفجر يلوح للظلام بالرحيل ، والأمطار تتساقط بهدوء والعاصفة قد خلدت إلى السكينة ..  
امرأة تقتل رئيس القوم وتضع جثته في كيس وتحمل الكيس في ظلمة الليل إلى كهف لا يدخله الناس في رابعة النهار ! من أية مدرسة تخرجت هذه المرأة الجريئة؟  
ومن أية جامعة نالت شهادتها؟! نعم إنها شهادة الكرامة ، لقد حملت الأمانة وأخلصت لها وانتصرت على الخيانة إنها امرأة قادت لواء الحرية بسيف يوسف الجبلي لقد تشوقت إلى الشرف حتى التحمت به فأصبح الشرف جزءا لا يتجزأ من هيكلها العام .. إنها امرأة تستحق التقديس والتعظيم وأخذت تسير من رابية إلى منحدر ومن سهول إلى هضاب حتى اقتربت من كهف الجن ..  
كان يوسف الجبلي قد انتهى من قطع الحطب من بين غابات السنديان وأوى إلى كهف الجن فرارا من البرد والزمهرير وقد أشعل في داخل الكهف نارا للدفع والحرارة ريثما يبيزغ الفجر ويعود بالحطب إلى داره ..  
وما أن وصلت خنساء إلى باب الكهف فأخرجت رأس الجثة من الكيس ورمته إلى قاع الكهف وتشاء الأقدار والصدف أن يضرب الرأس بالرأس ، جمجمة الأمير قد ناطحت رأس يوسف وما أن حدث هذا الحدث الطارئ الغريب ، قفز يوسف من مكانه بسرعة فائقة وسحب سيفه من غمده ونادى : هل من مبارز؟ لن أخاف من الجماجم ولا من أصحابها وإن كنت بطلا فادخل إلى الكهف لأتعرّف عليك وأعلمك الرجولة وكيف نرعب الرجال ؟ عندئذ تنفست خنساء الصعداء وقالت :  
ياالله !! ، يا أيها الناموس الأزلي المطلق شكرا لرحمتك التي شملت كل شيء ولمعجزاتك الباهرة التي تنير ظلمات القلوب .. نعم الرفيق أنت ! ونعم المساند والمؤازر للضعفاء والمساكين أنت الرقيب علينا وأنت الشاهد في هذه الدقائق المعدودات ! ..  
لم تستجب خنساء لصرخة يوسف من فرحتها وسرورها بلقائه غير أن يوسف قد هدأ قليلا وفكر مليا متفحصا الجمجمة فعلم أن الجمجمة هي رأس الأمير ..  
ثم نادى قائلا : هل قتلت الأمير يا خنساء ؟ أجابت خنساء : نعم يا يوسف ، تعال وهلم إلي لنجلس في الكهف ثم أردف قائلا :  
شكرا لك يا ملكة الدروب

بوركت سواعدك القوية

طوبى لك يا أم الأسود والسباع ..

شكرا لك يا ابنة الشرف والكرامة

تحية لك يا أسد الجبل، ويا جنية الكهف !!

سلاما لك يا غزالتى التى حفظت كرامتى ..

المجد لك يا ابنة الجبل الأشم ..

وعندما انتهى يوسف من تلاوة المديح والثناء على خنساء المشرفية المظفرة طرح سؤالاً للبحث والنقاش ماذا تفعل؟، وما هو الحل، وكيف الخلاص؟ قال يوسف سنترك الجثة في أعماق هذا الكهف ونعود إلى البيت، وبالتأكيد تعرف حاشية الأمير بأنه قتل بيدك لأن جماعته تعرف تحركات الأمير كلها من صغيرة وكبيرة وهي التي استغلت فرصة غيابي عن البيت للاعتداء عليك.. وفي الصباح سوف يتم إلقاء القبض علينا من قبل أعوانه وتقديمنا إلى المحكمة أمام جماهير غفيرة من الناس وفي أثناء ذلك يجب أن نجابه الموقف بجرأة وإقدام لا نهاب الموت ولا نخشى من أولئك الماجورين الذين باعوا أنفسهم بقليل من الخبز الأبيض، ودريهمات معدودات .. وأما بشأن هزيمتنا أي أن نخرج من قرينتنا فهذا شيء مستحيل لأنها مسقط رأسنا وأرض آبائنا وأجدادنا والمنطقة لا تخلو من الأمراء، وكلهم في الجور سواء الأمير الذي نذهب إليه هو أسوأ من أميرنا المقتول ليس هناك أمير جيد.. هؤلاء هم قياصرة الشعب وأعدائه يستنزفون دماء الحياة من جسد الشعوب.. ثم تركا الجثة في غور الكهف وتوجها إلى الدار وما أن وطنا أرض الدار حتى فوجئنا بالهجوم المسلح من كل الأطراف، كبل يديهما بالأصفاد وقال رئيس الحرس ليوسف الجبلي كيف تخلص نفسك اليوم من وجه العدالة، زوجتك تقتل أميرنا والله سنقتص منكما القصاص العادل .

تشكلت المحكمة الميدانية في وسط القرية وأمام قصر الأمير وسط جماهير محتشدة من الناس ليعتبروا بأبصارهم ما ارتكبه خنساء ويوسف من جريمة لا تغتفر، ونصب عود المشنقة ووضع الحبل فيه لتحكم المحكمة عليهما بالإعدام وذلك لغرس الخوف في قلوب الجماهير وتثبيت أقدام الإمارة على الحكم، ودرء الأخطار عن القصر ..

كان يوسف الجبلي محبوبا بين الفلاحين وزوجته خنساء ريحانة نفوس نساء البلد، بكت الجماهير أمام هول هذا المشهد المخيف، بعد قليل سيعدمان في هذه الساحة.. يا ويلتاه! ماذا اقترفا؟

وكان ليوسف في البلد أصدقاء من جبابرة الدهور يلاحقون الموت، ويستهنئون بالقدر ومنهم أمثال (عمر الكاظمي)، (خليل النهاوندي)، (سامي الأسدي) و (درويش القروي)، وهؤلاء ينظرون لجنة المحكمة بازدراء وانتقام وقد شهروا سيوفهم استعدادا للوثبة..

وشكلت المحكمة من خمسة أشخاص من مرتزقي الأمير وكانت خنساء المشرفية مكبله بالأغلال وبجانبها يوسف الجبلي مقيد بالسلاسل ووجهت إليهما الأسئلة التالية : لماذا قتلت يا خنساء الأمير (غدار بك الشهواني) ؟

خنساء : لأنه اعتدى على شرفي ومن أهان شرفي قتلته ..  
رئيس المحكمة : ماذا ينقصك إذا جامعك الأمير ؟  
خنساء : ينقصني الكبرياء والحياة العزيزة وإذا كان برأيك شيئاً حسناً فلماذا لم تقدم زوجتك له ، والحق يقال أنه كان يراود زوجتك وأنت ساكت أحرص أمام اختراق جدار الشرف يا عديم الشرف ..  
عندما نطقت خنساء المشرفية بهذه الجمل الحارة والساخنة توجه يوسف الجبلي إلى الجماهير وصرخ بأعلى صوته :  
أيها الفلاحون إن الأمير الذي أراد أن يعتدي على شرفي سوف يفعل فعلته النكراء بكم وكانت البارحة مصيبتني واليوم مصيبتكم فهو لا يفرق بين فلاح وآخر ينتهك حرمت الفقراء ما تمليه عليه الغريزة البهيمية.  
إن أعوانه أشد خبثاً منه فانفروا خفافاً وثقالاً لإنهاء هذه الشرذمة الخائنة في منطقتنا واستئصال جذورها من بلدتنا ، إنه اعتدى على شرفنا وفوق هذا يحكم علينا بالإعدام لا لخطأ ارتكبه بل لمثل عليا ودفاعنا عن أنفسنا ، والمعندي الأثم هو الذي نحر نفسه بنفسه ..  
هل كل من دافع عن شرفه يعرض لعقوبة الإعدام ؟  
في أي دستور سنّ هذا القانون ؟  
وأية شريعة نصت على هذا ؟  
وفي أي عصر أقرّ هذا البند ؟  
فتشوا كتب التاريخ وابعثوا في علم الاجتماع واسألوا أهل المعارف (امرأة دافعت عن شرفها فاستحقت المشنقة!!) هل هذه المرأة نكافئها ونقدسها أم نعدمها شنقا ؟!  
في شريعة ابن أوى نعدمها شنقا وفي شرعة البؤساء والمساكين نجلها ونحترمها .. ما هي جريرتنا وما هو انحرافنا ؟  
وجد الإنسان في هذه الحياة ليعيش سيدا عزيزا مكرما لا أن يحيا ذليلا مستعبدا ، لا عبودية إنسان لآخر خلق الناس متساوون ، ولا فرق بين إنسان وآخر إلا بما يقدم من عمل جليل ونافع .. هذه الفئة الحاكمة قد احتلت حقوقكم وبساتينكم وعلى ظهوركم وسواعدكم شادت القصور وبنيت الدور .  
واليوم تسحق بأقدامها شرفكم وعرضكم وتساق به إلى ساحات الإعدام ..  
ما قيمة الإنسان إذا جردناه من كرامته ؟  
وما معنى للحياة إذا كانت الحياة ذليلة صاغرة ؟  
حتى إن البهائم تتحرك فيها نخوة الشرف إبان الاعتداء فلماذا السكوت ولماذا الرضوخ إلى هذا المستوى ؟ إذا سلبت حرية الإنسان ، وجرّد من ذاته ، وأصبح آلة عمياء بيد إنسان أقوى منه .. أليس هذا هو الموت نفسه ؟  
أو ليس الموت الحقيقي أشرف منه .. ؟  
إن الجوع مع الكرامة أفضل من الذل مع الرفاهية ..! والفقر مدرسة يتخرج منها مواكب المناضلين الأشداء ، والشرف شعار تلك المدرسة المهذبة ..  
إن الموت تحت قعقة الرماح وظلال السيوف أشرف من حياة الذل والعيش على أبواب الأمراء والملوك ..

لقد حررت خنساء المشرفية بستانها من جرائم العلل الخبيثة .. إذ أظهرت حديقتها الخضراء من الأمراض والعلل الجهنمية ..،،،  
لقد توجت نضالها الزاخر بإكليل العز والفخار فهي بنت الشجاعة وأخت الشهامة وأم الليث والغضنفر ،نعم هي سيرة المناضلات ومربية الأجيال ،ومعلمة البؤساء والفقراء ..  
كل امرأة في هذا الجبل هي خنساء المشرفية ،وكل رجل في جبالنا السماء هو يوسف الجبلي ،إن الطغمة الحاكمة لا تفرق بين فلاح وآخر فالكارثة شاملة والمصيبة عامة ولا مفر من سيف السفاحين إلا بتعاونكم وتلاحم صفوفكم في وجه الجلادين فاتحدوا لاقتلاع جذور الشر واجتثاث جذور الظلم ..  
إن الذي أهانكم وأذلكم هو جهلكم بأنفسكم وبواقعكم إن وعي الذات هو وعي الحياة هو النضال في سبيل الحرية وإسعاد الإنسانية ..  
إن وقوفنا هنا في هذه الساحة أمام المجرمين الذين لبسوا لبوس العدالة ولكن ما وراء هذا الستار نفسية حقيرة وظالمة يتلظى فيها جحيم الظلم ،وسعير الاستغلال ..وما وقوفنا هنا إلا صورة كالحة من صور طغيان لهذه الشرذمة الضالة ..  
وسيأتي أدواركم جميعا واحدا تلو الآخر في تقديمكم لهذه المحكمة ووقوفكم مكان ووقوفنا ،والحكم عليكم بالإعدام ..  
فهبوا إلى الجهاد ،وتلبية نداء الواجب الطريقي لتحرروا أنفسكم من أوضاع الجهل والتشبث بأسباب العلم لتحطيم هذا الشبح المخيف أمام أبصاركم ..+  
والشعب ينتصر بنضاله العملي عندما يترجم نظرياته إلى محك تجريبي وواقع مادي ملموس ..  
والشعب يحل مشكلاته الداخلية بنفسه من نزاعات جانبية وخلافات مذهبية ،ومهاترات جوفاء ..  
فاقتلوا هذه الأمراض لتحسن صحتكم وتتقدم عقولكم ..وانظروا بمنظار واحد وبرؤية علمانية واضحة نحو عدو مشترك عدو الكادحين والعمال .  
والشعوب لا تؤمن بالكلمات البراقة للماعة بل يترسخ إيمانها بالتضحيات ويتعمق مبدؤها بالنضال العملي الذي ينطوي على الإيثار ،ونكران الذات ..  
إن الشعوب تقلد قادتها في النضال الفكري والعملي فالقادة ينبغي أن يتصفوا بتضحية الذات في سبيل العام والتحلي بالتواضع والإخلاص والتسلح بالنظرية العلمية والنقد التجريبي وغرس النظرة المادية الجدلية في عقول الشغيلة هي أداة جبارة للسلام والتقدم الاجتماعي ،يستمد الشعب المناضل مادة علمه من انتكاساته الماضية ،وخلفياته السحيقة ،يستلهم دروس النضال من تجاربه وفشله ..إن القاعدة الأساسية للمجتمع هي الجماهير الكادحة من المساكين والبؤساء أولئك الفقراء الذين دانته لهم رقاب الأثرياء ،وانتكست أمام جبروتهم رايات الأمراء أمثال: بابلو نيرودا ،الغفاري ..  
إنكم يا أخوتي تضعون تاريخكم بأنفسكم وترسمون قدركم بأيديكم والإهمال يجلب لكم الشقاء ،والنضال يحقق لكم السعادة والحياة الرغيدة ..

إن أولى المهمات الموكلة على كواهلكم بأن تشيدوا فردوسا في هذا الجبل قبل أن  
تبنوا جنة في السماء .. حرروا جبلكم هذا من أبالسة الأمراء وشياطين الأغنياء ..  
إن الجبل يناديكم مستنجدا بكم لتطهروه من غدر الذئاب ومرأغة الثعالب ، وفحيح  
الأفاعي لقد دقت ساعة الصفر ، وشرع الانتصار يلوح بيديه الفولاذيتين ببشائر  
الفرحة بيوم عرس الحرية ..))

بينما كان يوسف الجبلي يخطب في جماهير الفلاحين والأذان صاغية إليه والقلوب  
معه ، وعلى وجوههم الشهامة والإقدام فكان بكلماته يضمد جراحا قديما قد استنزف  
الدم منه ، فئنة تقول يا له من شاب شجاع لا يهاب الصعاب والمخاطر !! ، وجماعة  
تقول: إن كلماته تأخذ بألباب النفوس وبناصية العقول وفئة ثالثة تقول : إنه شاب  
وسيم يقتحم المخاطر في سبيل إسعادنا وتحريرنا من ظلم الأمير !! ..  
هكذا كانت الجماهير الكادحة تسمع إلى خطبة يوسف الجبلي بكل ملكاتها العقلية  
والنفسية ولا تحسب حسابا للنتائج والخواتم ..

في ذلك الطرف العصيب من غليان القلوب واضطراب الأفئدة ، هجم رئيس المحكمة  
بسيفه على يوسف وامرأته خنساء وبسرعة البرق يسحب (عمر الكاظمي) و(خليل  
النهاوندي) و(سامي الأسدي) و(درويش القروي) سيوفهم من أغمدتها ويهجمون  
على رئيس المحكمة وهتفت الجماهير بصوت واحد (عاشت الحرية) و(ليسقط حكم  
الأمير) ثم اقتحمت بسيوفها المحكمة وأقت القبض على رئيس المحكمة وأعضائها  
وكبلت أيديهم وأقدمهم بالسلاسل ، وحطموا قيود يوسف الجبلي وخنساء المشرفية  
، وقد تمّ تقديم أعضاء المحكمة ورئيسها إلى محكمة الفلاحين والكادحين بقيادة يوسف  
الجبلي رئيسا لها وحكمت محكمة الشعب عليهم بالإعدام ودفنهم في (كهف الجن  
والغيلان) بجانب أميرهم المجرم ..

عندئذ كتبت الحرية بدمها القرمزي ((المجد للفلاحين للمعلم والبروليتاري الأمين  
يوسف الجبلي ، وسطرت العدالة الاجتماعية بأحرف من نور ثورة الجبل وخلدت إلى  
الأبد شعارا خالدا ترتله الأيام وتنغمها الليالي ، وتلحنها العصور تقديسا وتمجيذا  
لانتفاضة الجبل ..

وهكذا ذهب الفلاحون إلى حقولهم ولا احد يفرض عليهم الضرائب وليس هناك سيد  
وخادم ، كلهم سادة ولا امتياز بينهم ، وحولوا قصر الأمير إلى مؤتمرات عامة لمناقشة  
أمور وأوضاع منطقتهم فأصبح الفلاح سيدا في حياته كلها ، ولا سلطة إلا سلطة  
العدالة الاجتماعية ..

النهاية

مرکز تیریج سوفت - عفرین - طریق راجو - هاتف ۷۸۷۹۷۴۲۰ - ۰۹۴۴۴۱۰۹۲۵

## علمي ظهر الكتاب



الرواية هذه قناعٌ دراميّ يختفي الكاتب خلفها ليعلن ثورته على التقاليد  
البالية .

وبهذه الدلالات المتلاحقة يعبر الكاتب عن نهجه الجدلي على التقاليد التي  
استبدت بعقول الدهماء وحوّلتهُم إلى أموات ويختزل الكاتب العبارة التالية :

مركز تيريج سوفت - عفرين - طريق راجو - هاتف ٧٨٧٩٧٤٢٠ - ٠٩٤٤٤١٠٩٢٥

ولكنَّ في قلب كل شتاءٍ ربيعاً يختلج وراء نقاب كل ليل صباحاً يبتسم مستهدفاً  
من خلال عرض الأحداث تحقيق الحرية للمجتمعات البائسة .